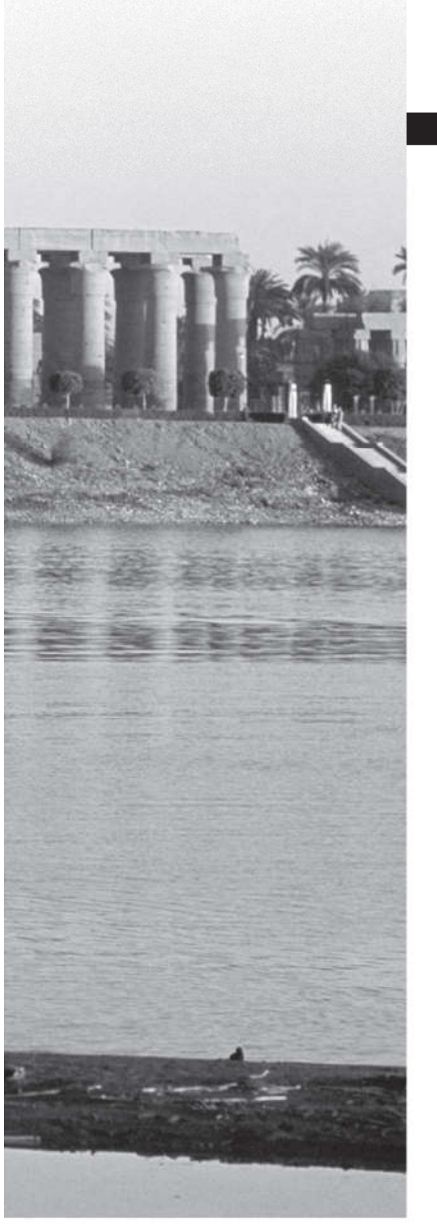


النيل فى الشعر الحديث.. من الرومانسية إلى الواقعية

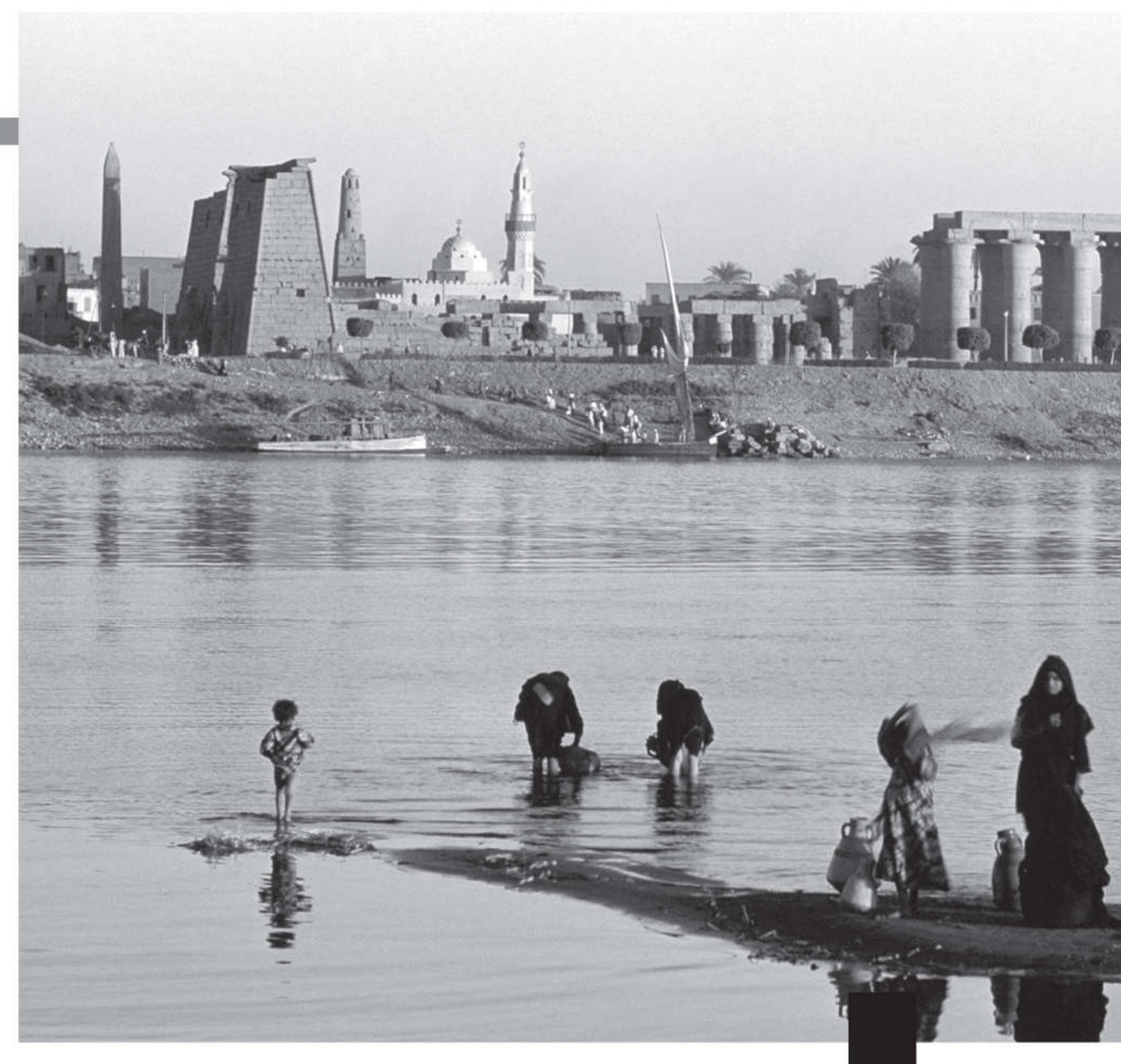
د. مصطفى الضبع

مطلع الألفية الثالثة، بدأت علاقتى بالكتابة عن النيل، علاقة تبلورت فى مشروع لجمع ديوان الشعر العربى عن النيل، نشرت منه حتى الآن تسع دراسات:

النيل فى الشعر العربى الحديث - مؤتمر ثقافة النيل- مؤتمر إقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد الثقافى التاسع - حلوان ٢٤-٢٦ مايو ٢٠٠٩.

النيل فى الشعر العربى الحديث - مجلة الثقافة الجديدة - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - العدد ٢٧٦ سبتمبر٢٠١٣.

سبع مقالات نشرت مسلسلة فى مجلة الهلال بعنوان "النيل يجرى شعرًا" توقفت كل منها عند رؤية أحد شعراء العربية للنيل(١).



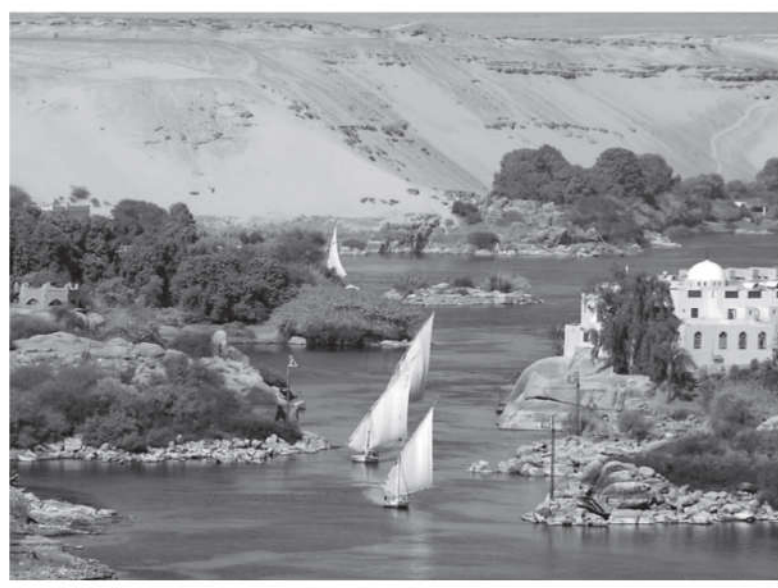
النيل فى الشعر العربى فى مصر تنتظمه رؤيتان شعريتان أساسيتان تشكلان شعرية النيل فى القصيدة المصرية، ينتج عنهما ثلاث دوائر دالة تحيط بتجربة الشاعر المصرى مع النيل.

ديوان النيل الشعرى يضم أكثر من ثلاثمائة قصيدة شعرية، جاء النيل موضوعا وتقنية، وتصدر عناوين عشرات منها، كما كان له حضوره فى عناوين ثمانية دواوين شعرية حديثا(٥).

يمثل النيل مفردة فى قاموس الثقافة المصرية، ونسقًا ثقافيًا وجد صداه فى حياة المصرى عبر العصور، ليس على مستوى الشعر فحسب وإنما على مستوى حياة الشخصية المصرية فى كل جوانبها وفى كل تجلياتها، مما يجعل منه مفردة حاضرة فى وعى الشخصية المصرية الذى تعبر عنه الأمثال والحكم والفنون المختلفة التى تنتجها العقلية المصرية على مر العصور، ينتج عنه مصطلحات كاشفة عن هذا النتاج: ثقافة النيل، فنون النيل، أدب النيل، قصيدة النيل، ديوان النيل، سرد النيل، حكايات النيل، أغانى النيل، حواديت النيل، ومعجم ألفاظ النيل، جغرافية النيل، اقتصاد النيل، مجتمع النيل وغيرها مما يكشف عن أنظمة من التعبير جرت على ألسنة الشخصية المصرية عبر العصور، منها المكتوب غير المدرك بكامله، ومنها الشفاهى المتفرق الذى لم يجمع بعد، وجميعه يكشف عن تقصير واضح فى جمع ثقافة النيل وتقديمها بوصفها عنصرًا أساسيًا من مكونات الشخصية المصرية التى إن كان للنيل دور فى تشكيلها، فقد كان لها دورها فى اكتشاف قيمة النيل واستثمار معطياته، وهو ما يؤكده الدكتور محمد حسن عبد الله فى دراسته حول النيل وهيرودوت مناقشًا المقولة الشهيرة: "مصر هبة

فى القصيدة الكلاسيكية يكون النيل صورة شعرية موصوفة

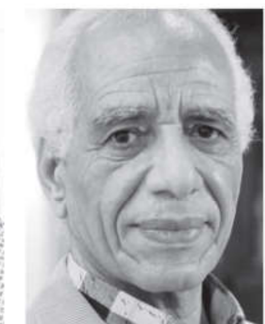
النيل" معيدًا فيها النظر لصالح الشخصية المصرية التى كان النيل من هباتها: "مصر هبة النيل، هذه العبارة الذهبية التى يرددها ملايين المصريين عبر العصور اقتداء ب هيرودوت ، معتقدين أنها تؤكد خصوصيتهم، وتعمق انتماءهم، وهى – فيما نتصور– تسلبهم أهم أدوارهم الحضارية، وهو ترويض النهر، وحفظ التوازن بينه وبين الأرض من حوله حتى تختفى علاقة التوجس والالتهام، فترتقى إلى علاقة التزاوج والإخصاب(٢)، وهو ما يدلّ عليه



الكاتب عبر الاستشهاد بمقولات كتاب آخرين شاركت أفكارهم فى الكشف عن الشخصية المصرية فى تفردها مع النيل، وكيف أن تفرد النيل فى مصر ليس صناعة النيل وإنما هى صناعة الإنسان المصرى بالأساس(٣)، وفى منطقية هادئة يوضح الدكتور محمد حسن عبد الله فكرته: "لو أن مصر هبة النيل، كما يكون المكتب أو المقعد هبة النجار، أو أن السيارة هبة المصنع الذى أنتجها، فإن هذا القول – حال صحته – ينبغى أن يصدق – بالدقة ذاتها – على كافة الأقطار التى تشكل حوض النيل، فتكون السودان هبة النيل، وكذلك أوغندا، والحبشة (إثيوبيا) وغيرها، ولكننا نلاحظ تفاوتًا حضاريًا واضحًا لا يمكن تجاهله، كما لا يمكن إسناده إلى سبب مؤثر واحد يستوعب ما عداه من الأسباب، وأن هذا السبب ينحصر فى النهر ومياهه دون تدخل بشرى هو الذى نرى أنه مانح الهبة، أنه الذى جعل من النيل هبة لمصر، وليس العكس. وهنا نلاحظ أمرين: أن مصر التى تقع فى الطرف الأقصى لمصادر مياه النيل فلا تحظى من هذه المياه إلاّ بالقدر الضئيل، هى – بين دول الحوض – الأقدم، والأكثر إنتاجًا زراعيًا وإفادة من المياه. وأن التقدم الحضارى الذى صنعته مصر يصل بعض منه إلى القريب من جيرانها، أو من كانت له معها علاقات تاريخية، فى حين ظل أهل الغابات فى غاباتهم تائهين حتى اليوم"(٤).

المعنى فى الإنسان قبل أن يكون فى النيل، فى العقل المفكر للاستثمار، وفى الوعى المستثمر لعطاء النيل، وفى اليد التى عملت على الإنتاج، ثم فى الذائقة الإنسانية التى بثت الجمال فى القصيدة وقدمت النيل بوصفه نتاجًا شعريًا لا يقل قيمة عن كثير من مفردات الشخصية المصرية التى عايشتها القصيدة وعبرت عنها قرائح الشعراء وحفظتها قلوبهم فجاءت شعرية النيل نتاجًا لوعى هؤلاء المدركين النيل بوصفه جذرًا للحضارة ونظامًا للثقافة، ورؤية للعالم.

ديوان النيل الشعرى يضم أكثر من ثلاثمائة قصيدة شعرية، جاء النيل موضوعًا وتقنية، وتصدر عناوين




حسن طلب




أمل دنقل

أحمد محرم

عشرات منها، كما كان له حضوره فى عناوين ثمانية دواوين شعرية حديثا(٥).

النيل فى الشعر العربى فى مصر تنتظمه رؤيتان شعريتان أساسيتان تشكلان شعرية النيل فى القصيدة المصرية، ينتج عنهما ثلاث دوائر دالة تحيط بتجربة الشاعر المصرى مع النيل.

الرؤية الأولى

النيل مقصود لذاته، وهى رؤية تقليدية، حيث النيل موضوع للقصيدة والشاعر يكتب عنه بوصفه موضوعًا أو معادلًا موضوعيًا يسبغ عليه ما فى نفسه، أو يصوره من حيث هو كائن فى تجربة الجماعة البشرية، مطروح على وعى الطبيعة الجغرافية، يغلب عليه طابع الصورة البصرية التى يتابعها الوعى الإنسانى عبر حركة الحياة اليومية، وهو ما يضع المتلقى إزاء تساؤل عما أضافته القصيدة لما هو مرئى، ولما هو معروف، يبرز فى هذه الدائرة سبعة عشر شاعرًا تجاوزت تكرارات النيل فى نتاجهم الشعرى عشر مرات وهم بالترتيب حسب تكرار المفردة فى شعرهم: أحمد محرم(١١١) - محمد عبد المطلب(٩٨) - حافظ إبراهيم(٧٦) - على الجارم(٦٢) - أحمد شوقى(٥٨) - أحمد الكاشف(٥١) - محمد توفيق على(٤٨) - أحمد نسيم(٣٦) - بركة محمد(٣٣) - على محمود طه(٣١) - زكى مبارك(٢٧) - عبد الحليم حلمى(٢٦) - صالح مجدى(٢١) - البارودى(١٥) - الساعاتى(١١) - صالح الشرنوبى(١٠) إضافة إلى عدد من الشعراء الذين تتكرر المفردة لديهم أقل من ذلك ويمثلون دائرتين تشكلان كلاسيكية القصيدة ورومانسيتها.

وهى رؤية تنتظمها مدرستان شعريتان:

١- الكلاسيكية: وفيها يكون النيل صورة شعرية موصوفة، يعتمد الشاعر فيها على تقديم النيل بوصفه موضوعًا تدور حوله الصورة، مرئيًا من الخارج، مخبرًا عنه، وطارحًا صفاته كما يراها، وجاعلًا منه ذاتًا عليا يخاطبها، أو أسطورة تهب الخير والنماء، بوصفه سلطانًا وقوة ذات طغيان، منها قول أمير الشعراء أحمد شوقى:

النيلُ العَذبُ هُوَ الكَوثَر
وَالجَنَّةُ شاطِئُهُ الأَخضَر

وقوله فى قصيدته الشهيرة مخاطبًا النيل:

مِن أَىِّ عَهدٍ فى القُــرى تَتَدَفَّقُ
وَبِأَىِّ كَفٍّ فى المَدائِنِ تُغدِقُ
وَمِنَ السَماءِ نَزَلتَ أَم فُجِّرتَ مِن
عَليا الجِنانِ جَداوِلًا تَتَرَقرَقُ

والقصيدة مطولة شعرية (١٥٣ بيتًا) تعد ملحمة للنيل فى سياق التاريخ المصرى، يأتى ترتيبها الخامس فى ترتيب مطولات شوقى التسع أو مئوياته (قصائد شوقى التى تجاوزت مائة بيت)، ولا تبتعد القصيدة الكلاسيكية أو لا تختلف عن هذا الإطار الشعرى، كما هو الأمر عند حافظ إبراهيم فى قوله:

وَبَنو مِصرَ فى حِمى النيلِ صَرعى
يَرقُبونَ القَضاءَ عامًا فَعاما
أَيُّها النيلُ كَيفَ نُمسى عِطاشًا
فى بِلادٍ رَوَّيتَ فيها الأَناما

أو عند أحمد محرم فى قوله:

خَلّوا سبيلَ الشّاعرِ المُتدفّعِ
وخُذوا بيانَ العبقرىّ المُبدَعِ
النّيلُ يُصغى فى مواكبِ عِزّهِ
ويَهُزُّ عِطفَ الشيِّقِ المُتطلِّعِ

٢- الرومانسية: مرحلة الخطاب الإنسانى للنيل وتشخيصه مع التوحد معه جريًا على مبدأ الرومانسية فى التوحد مع الطبيعة، وخير نموذج لها قصيدة محمود حسن إسماعيل(٦):

مسافر زاده الخيال
والسحر والعطر والظلال
ظمآن والكأس فى يديه
والحب والفن والجمال
شابت على أرضه الليالى
وضيعت عمرها الجبال
ولم يزل ينشد الديارا
ويسأل الليل والنهارا
والناس فى حبه سكارى
هاموا على شطه الرحيب
آه على سرك الرهيب
وموجك التائه الغريب
يا نيل يا ساحر الغيوب



صالح الشرنوبى



على الجارم



على محمود طه

ويأتى التشخيص سياقًا رومانسيًا يتخذ بدوره عدة أنماط منها اتخاذ النيل صديقًا يلجأ إليه الشاعر بحثًا عن السكينة ونافضًا عنه الهموم(٧)، ومنها قول الشاعر أحمد عبد النعيم (٨):

فيك طابت نفسى وعانقتُ أنسى
وترشّفتُ فيك كأسَ صفائى

وفى الدائرتين معًا تتجلى دوائر جانبية تشترك فيها المدرستان من معالمها تلك الصورة التى تتشكل من سبيكة نصية من المضاف (الإنسان)، والمضاف إليه (النيل)، حتى صارت صيغة شعرية تولد عنها صورة شعرية عمد عدد من الشعراء إليها، ومن أنماطها المتداولة بين الشعراء: ابن النيل - بنت النيل - أبناء النيل - بنى النيل - فتية النيل السعيد، ومنها قول شوقى:

يا فتيَةَ النيلِ السَعيد خُذوا المَدى
وَاستَأنِفوا نَفَسَ الجِهادِ مَديدا

وقول حافظ إبراهيم:

عارٌ عَلى ابنِ النيلِ سَبّاقِ الوَرى
مَهما تَقَلَّبَ دَهرُهُ أَن يُسبَقا

وقول حماد الباصونى:

فَحَيِّ النيلَ يا ابنَ النيلِ دَومًا
وَقَدِّم مُهجَةً لِأَبٍ أَهابا

وقد تكررت صيغة (يا بنى النيل) عند الشاعر أحمد محرم إحدى عشرة مرة، تكشف عن الطاقة التعبيرية للنداء فى شعره، منها قوله:

يا بنى النيلِ حكمةً تَرأبُ الصَّدعَ
وحزمًا يَسُدُّ هَذى الخِلالا

وقوله:

بنى النيل جِدُّوا فى المَطالب وَاصدُقوا
فَلا مَجدَ حَتّى يَصدُقَ العَزمُ وَالجِدُّ

ومنها قول، على الجارم:

فأرسلتْ مصرُ بنتُ النيل من دمِها
وَردًا تَزينُ به هامَ الصناديد

الرؤية الثانية

وتتمثل فى دائرة واحدة، تنفرد بها القصيدة الواقعية، فالنيل مقصود لغيره، حيث تتسع الرؤية الشعرية جاعلة من النيل تقنية تضاف إلى الموضوع، والشاعر يتجاوز الرؤية التقليدية للنيل إلى رؤية أعمق من مجرد تقديم النيل وفق صفات الجغرافيا والتاريخ أو وفق رؤية تقوم على الموضوع، ويمثلها شعراء الواقعية أو شعراء الحداثة الشعرية المصرية ممن يمثلون تيارًا جديدًا (أمل دنقل - حسن طلب - محمد سليمان).


محمد سليمان


محمود إسماعيل

أحمد شوقى

فى قصيدة "ميتة عصرية" من ديوانه "تعليق على ما حدث" تأتى القصيدة فى مقطعها الثانى سردية لما آلت إليه أمور الوعى بالنيل بوصفه رمزًا للوعى بالوطن وتاريخه ومقدراته، يسيطر على القصيدة صوتان يتبادلان الحضور والغياب غير أن مساحة أحدهما تطغى على مساحة الآخر فى محاولتها نفى الآخر ونفى النيل معًا، تُستهل القصيدة بسؤالها المحورى الكاشف عن جهل المتسائل (تجاهله)، يأتى السؤال فى بداية المقطع دالًا فى كشفه عن وعى ملقيه:

"من ذلك الهائم فى البرية
ينام تحت الشجر الملتف
والقناطر الخيرية؟

الرومانسية هى مرحلة الخطاب الإنسانى للنيل وتشخيصه والتوحد معه

- مولاى. هذا النيل
نيلنا القديم" (٩)

ويأتى السؤال الثانى كاشفًا عن جهل الطرف المسيطر أو الطرف الطاغى، ويكون الجواب استنكاريًا، والاستنكار يطبع الحوار على امتداده منتقلًا إلى المتلقى الذى يكتشف تدريجيًا طبيعة الحوار ومغزاه، وما يريد الشاعر أن يطرحه من رمز/ رموز يكون النيل محورها ومنصة انطلاقها والكاشف عن اللحظة وظروفها:

-" أين ترى يعمل أو يقيم؟
- مولاى. كنا صبية نندس فى حياضه الصيفية
فكيف لا تذكره؟".

ولم يفلح الطرف الأضعف فى إنعاش ذاكرة الطرف الأقوى الذى تتخلى ذاكرته عن معالم الوطن تجاهلًا وعن سر الحياة فى الوطن تغابيًا وسرعان ما يتذكر الصورة الأقرب للخزعبلات المطروحة فى الوعى الشعبى عن النيل:

"- النيل؟
أين يا ترى
سمعت عنه قبل هذا اليوم؟
أليس ذلك الذى
كان يصاحب العذارى
ويحب الدمَّ؟".

ولم تفلح كل الحقائق المسوقة فى تنبيه الطاغية لخطأ تصوره فيكون قراره الأخير كاشفًا عن رؤيته للنيل بوصفه واحدًا من رعاياه الذين يتعامل معهم على طريقة الحفظ لا الفهم:

"لا شأن لى
بذلك المشرد المجنون

لا بد أن يريني أوراقه الرسميةْ
شهادة الميلاد
والتطعيم، والتأهيل
والموطن الأصلى والجنسيةْ
لكى ينال الحق
فى الحريةْ".

يوظف الشاعر النيل للكشف عن طبيعة الطاغية وجهله، تصويرًا للحظة تاريخية يعيشها الوطن ويفتقد فيه أبناؤه حقهم فى الحرية التى تعود الطاغية سلبهم إياها.

تمثل قصيدة أمل مساحة لرؤية مغايرة لما سار عليه شعراء الكلاسيكية والرومانسية، فلم يعد النيل صورة رومانسية تمثل الطبيعة كما يراها الشاعر، وإنما أصبح النيل تقنية يعتمدها الشعراء للكتابة بالنيل وليس عنه، وهو نظام جاءت وفقه عدد من القصائد تمثل رؤية شعراء القصيدة الواقعية أو قصيدة الستينيات وما بعدها، كما نجد عند حسن طلب فى "لا نيل إلا النيل" ومحمد سليمان: فى قصيدته "قلت للنيل" التى تعد نموذجًا أصيلًا لتوظيف النيل توظيفًا جماليًا شديد الدلالة على رؤية النيل:

"قلت مازلت ربًّا كبيرًا
ومحترمًا وقديرا
كلامك نخل وفاكهة
وسلام وشهد
وأنت الذى..
والذى والذى
قال كنت...
قبيل وصول المغول الجدد
وقبل انتشار البلاء
ونهب الهواء
وقبل هجوم الصحارى"(١٠).

توصيات:

لأن النيل ليس مجرد مجرى مائى، وليس مجرد تشكيل جغرافى يمتد عبر التاريخ المصرى والإنسانى، وإنما هو حضارة لا بد أن نكون على وعى بما تكتنزه من مكونات حضارية داخلة فى نسيج الحضارة الإنسانية، ولأن ثقافة النيل المتجذرة فى تشكيل الثقافة المصرية فإن هناك من الجوانب ما يستحق الانتباه:

أولًا: عدد المؤلفات المصرية عن النيل لا تكافئ القيمة ولا تحيط بالواقع، لذا فإن على المؤسسات الثقافية وضع الخطط للتأليف حول النيل: سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا.

ثانيًا: التخطيط لإنشاء (أكاديمية النيل) تستهدف تقديم برامج علمية لاستثمار النيل ونشر ثقافته والتوعية بقيمته وحفظ تراثه وتقديمه للدارسين بوصفه قيمة حضارية وليس مجرد قضية سياسية.

ثالثًا: جمع فنون النيل وآدابه وكل ما يمثل ثقافة داخلة فى حضارة النيل.

رابعًا: إنتاج أعمال درامية تقدم النيل بوصفه قيمة حضارية وإنسانية وثقافية وليس قضية سياسية فحسب.

هوامش وإشارات

١ - أبريل ٢٠١٢ - مايو ٢٠١٢- يونيو ٢٠١٢- يوليو ٢٠١٢ - أغسطس ٢٠١٢- فبراير ٢٠١٥.

٢ - د. محمد حسن عبد الله: هيرودوت يقرأ النيل - مؤتمر ثقافة النيل - إقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد الثقافى - حلوان ٢٤-٢٦ مايو ٢٠٠٩.

٣ - ممن استشهد بهم الدكتور محمد حسن عبد الله: رشدى سعيد: نهر النيل: نشأته، واستخدام مياهه فى الماضى والمستقبل- دار الهلال - القاهرة، ط٢، ٢٠٠١.

٤ - السابق نفسه.

٥ - صالح جـــودت: الله والنيل والحب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٥، ط٢/١٩٨٧.

- حسن فتح الباب: مواويل النيل المهاجر - دار الثقافة الجديدة - القاهرة ١٩٨٧.

- فوزى خضر: النيل يعبر المواسم- الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩١.

- حسن طلب: لا نيل إلا النيل - دار شرقيات - القاهرة ١٩٩٣.

- عبد المنعم عواد يوسف: لكم نيلكم ولى نيل - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٣.

- محمد حماسة عبد اللطيف: حوار مع النيل- دار غريب - القاهرة ٢٠٠٠.

- فاروق شوشة: النيل يسأل عن وليفته - الدار المصرية اللبنانية - القاهرة ٢٠٠٩.

- زين الدين فؤاد: صفحة من كتاب النيل (ديوان بالعامية المصرية)- طبعة خاصة - القاهرة ١٩٩٢.

٦ - يعتمد الشاعر مفردتين تشيران إلى النيل وتمثلان عمادًا أساسيًا للعلامات اللغوية الأكثر دلالة عليه: النيل - النهر، تتكرر الأولى ١٩٥ منها ما تصدر القصائد بوصفها عناوين للقصائد :عروس النيل من "أغانى الكوخ" - دجلة والنيل من "الملك" - النيل من ديوانه الرابع "أين المفر" - النيل نعسان من (قاب قوسين) - أغنية للنيل من "صلاة ورفض"-، فيما تنفرد الثانية (النهر) بكونها تتصدر الديوان الثانى عشر (نهر الحقيقة)، ولا يعنى هذا توقف المفردة عند هذا الديوان وإنما تسهم المفردة فى تشكيل عنوان عدد من القصائد: نهر النسيان، من ديوان "أين المفر" - معجزة على النهر- فاتنتى مع النهر من ديوان "قاب قوسين"- قاهر النهر من ديوان (نهر الحقيقة) وهى مفردات تمثل علامات شعرية يعتمدها الشاعر وسيلة تعبيرية لها وظيفتها/ وظائفها الجمالية القادرة على إنتاج دلالاتها الخاصة (مصطفى الضبع: نيل محمود حسن إسماعيل - مجلة الهلال - دار الهلال - القاهرة - فبراير ٢٠١٥).

٧ - النيل الصديق والملجأ صورة تجاوزت الشاعر المصرى إلى الشاعر السودانى والعربى فكانت واحدة من الصورة المتكررة فى القصيدة العربية الحديثة ومنها قول الشاعر السودانى بابكر أحمد موسى:

جئت للنيل فى خشوعٍ وصمتٍ فكأنى قد جئت للمحراب

٨ - أحمد عبد النعيم محمد سليمان عبد الرحيم، ولد فى قرية عرابة أبيدوس (مركز البلينا - محافظة سوهاج)، وتوفى فيها.

٩ - أمل دنقل: الأعمال الكاملة - دار الشروق - القاهرة ط٢، ٢٠١٢، ص ٢٠٥.

١٠ - محمد سليمان: قلت للنيل - أخبار الأدب - مؤسسة أخبار اليوم - القاهرة - ع ٨٨٨- الأحد ٢٥ يوليو ٢٠١٠.